جامعة الإسكنـــدرية
كليـــــة الآداب
قسم اللغة العر بية وآدابـها

رسالة ماجستير

"قصيدة المديح في بلاط هارون الرشيد "

دراسة فنـية

مقدمة من الطالب

محمد شاكر محمد محمود

لنيل درجة الماجستير فى الآداب العربية

إشراف

أ.د / ورد محمدي مكاوي عزب

١٤٣٠هـ /٢٠٠٩م

مقدمـــــة :-

" الشعر ديوان العرب " ظلت هذه المقولة تتردد كثيراً عبر حقب متوالية ، وقد يحصر البعض معناها في أهمية الشعر ودوره في حياة العرب ، غير أنها بالإضافة إلى ذلك تشير إلى أن الشعر ربما يبوح أكثر من غيره عن حياة العرب وأخبارهم ، إن اللغة التي يصب الشعراء فيها أفكارهم وأشجانهم ، هي في ذاتها كاشفة لأسرار العصر الذي يعيشون فيه ، فبقليل من التحليل والتأمل لقصائد الشعراء على تنوعها وتباينها يمكننا أن نرسم صورة حقيقية للعصر الذي قيلت فيه ، ولما كان عصر هارون الرشيد من العصور المثيرة للجدل ، ربما لكثرة التيارات الفكرية الموجودة فيه ،وذلك لاتساع الدولة الإسلامية وتعدد الثقافات الناتجة من الفتوحات ، وربما لشخصية هارون الرشيد نفسه ، هذا الخليفة الذي كان يحج عاماً ويغزو في سبيل الله عاما آخر ، ومع ذلك ينقل عنه ما ينقل من أخبار وشائعات عن حبه للخمر والنساء .

ولهذا كان لدراسة الشعر الذي قيل في هذا العصر أهمية كبيرة وخصوصاً قصيدة المديح ، فإن قصيدة المديح ليست دائماً كما يبدو منها مبالغة في وصف الممدوح ، بأن ينسب إليه الشاعر ما فيه وربما ما ليس فيه ، وإنما هي في ذاتها تعبير عن القيم التي ارتضاها المجتمع في هذا العصر ، بالإضافة إلى أن قصيدة المديح كثيراً ما تتسع لتغطي أحداثاً ومواقف قام بها الممدوح ، ومن هنا فإن

النظر إلى قصيدة المديح يتطلب مزيداً من التحليل والتأمل ، لربطها بالموقف الذي قيلت فيه وبشخص الشاعر وأبعاده النفسية وشخص الممدوح ومواقفه وردود أفعاله ، وإذا جرى الأمر على هذا النحو فإن قصيدة المدح تعطي لنا أكثر من مجرد غرضها المحدود لتتسع فتشمل تفاصيل وأخبارا وأفكارا تساعدنا على تكوين رؤية شاملة للعصر الذي قيلت فيه .

ولما كان تطور الشعر عند الشعراء ناتجاً عن رغبة أصيلة لديهم في الإتيان بالمغاير والجديد ، حبذا إن كان هناك حركة نقدية مصاحبة ، تشجع الشاعر على إحداث هذا التطور ، ولذا فكان علينا أن نرصد ملامح هذا التطور في قصيدة المديح في هذا العصر الثري ، وتندرج هذه الدراسة تحت مسمى النقد التطبيقي وقد آثرنا استخدام المنهج التحليلي التكاملي ، حيث نسعى من خلاله للوقوف على معاني المديح في هذا العصر باعتبارها نافذة على القيم السائدة فيه واضعين في الاعتبار علاقتها بهذا الموروث القيميّ للمجتمع العربي ، ثم نُعرَّج إلى تناول الصورة في قصيدة المديح ، وما فيها من قيم فنية وجمالية محاولين الاستفادة مما أفرزه النقد الحديث من نظريات وآليات لتناول الصورة الفنية بالإضافة إلى الاعتماد على المراجع والمصادر النقدية في هذا المجال ، ثم ننتقل إلى دراسة بنية قصيدة المديح في هذا العصر ، راصدين ملامح التطور الذي حدث

فيها ، ومدى قبول الممدوحين لهذا التطور باعتباره مخالفاً لما توارثونه من شكل محدد لقصيدة المديح ، وعلى هذا تم تقسيم هذا البحث إلى :-

* **مقدمة :-** وقد أشرنا فيها إلى أهمية البحث ومنهجنا في تناوله ،ثم ،

* **الفصل الأول** :- ونتناول فيه معاني المديح

* **الفصل الثاني** :- ونقوم فيه بدراسة الصورة

* **الفصل الثالث** :- ونتناول فيه بنية قصيدة المديح

وسوف نذيل هذا البحث بخاتمة تحتوي على ثماره ونتائجه ، ثم ثبت بالمصادر والمراجع ،عسى الله أن ينفعنا بما سبقنا إليه الأولون ويرزقنا علماً ينتفع به اللاحقون ، ويهدينا أدب الملائكة حين يُسألون فيما لا يعرفون : { قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ } [1]

---

[1] القرآن الكريم ، سورة البقرة ، الآية ٣٢

الفصـــــل الأول

معاني المديح

إن دراسة معاني المديح قد أخذت أشكالاً مختلفة ، وأنماطاً متنوعة عبر كل العصور محاولة الوقوف على طبيعة المجتمع وما يُعليه من قيم تستحق أن يوصف بها الممدوح من خلال استجلاء وتعقب الجدلية القائمة بين الفضائل من جهة باعتبارها قيماً نسبية وبين المجتمع من جهة أخرى باعتباره بنية تحمل في طياتها عوامل التغير والتطور .

فإذا كانت القبيلة العربية تمتدح الكرم كصفة فإن ذلك مرده إلى الطبيعة العربية القاحلة الضنينة ، مما يجعل الكرم أمراً مستغربًا فيها ، فالمنطقي أن حالة الجدب والصراع على الكلأ والمرعى من المفترض أن تورث الشح في النفوس لهذا أعلت القبيلة العربية من قيمة الكرم باعتبارها تحدياً لسطوة البيئة على النفس البشرية ،وباعتبارها أيضاً رمزاً للقوة المُسيطرة ." فالكرم لم يكن ممدوحاً لأنه من آثار الرحمة والعطف ، ولكن لأنه مظهر السِّيادة والتفضُّل والقوة والاستعلاء ، فالكريم هو القويّ الذي يجود بما تجدي عليه السيوف والرماح ، وهو لا يدخر المال لأنه لا يخشى الفقر، ولا يشفق من المستقبل مادام يستطيع أن ينتزع الثروة حيث كانت " [1]وما ينطبق على قيمة الكرم ينطبق كذلك على باقي القيم والفضائل حيث إن الوجه الحقيقي لاستحسانها وامتداحها هو مكانتها من القوة في نظر العربي القديم ، فقد كانت القوة هي المثل الأعلى الذي آمن به [1]

---

[1] الهجاء والهجاءون في الجاهلية : ص٨٠ ، د/ محمد محمد حسين ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ١٩٤٧ م.

[1] أنظر الهجاء والهجاءون في الجاهلية : ص٨٠ ، د/ محمد محمد حسين ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ١٩٤٧ م.

ورغم اختلاف الدراسات وتنوعها عبر العصور المختلفة إلا أن قصيدة المديح تظل ليست مجرد أبيات يقولها الشاعر ليُعلي من قدر ممدوحه ويصل به إلى درجة الكمال . سواءً أكانت فيه ما تتضمنه الأبيات من فضائل وصفات أم لم تكن فيه . بل هي عند التأمل مرآة حقيقة تشي له بطبيعة المجتمع وظروفه وما يُعْليه من قيم وما يستنكره من عادات . وإلى ذلك يشير العقاد في

قوله :" وإلى الشاعر يرجع العربي ليتعرف القيم الأخلاقية المفضلة ، ويستقصي المناقب التي تُستحب من الإنسان في حياته الخاصة أو حياته الاجتماعية ، يرجع العربي إلى الشاعر ولا يرجع إلى الفيلسوف أو إلى الزعيم أو إلى الباحث في مذاهب الأخلاق... ففي الشعر العربي تنويه بكل صفة من صفات المروءة والفتوة ، وإزراء بكل عيب من العيوب التي تشين صاحبها بين قومه ، وبيانٍ وافٍ للأخلاق التي تحكم الحياة فعلاً أو ينبغي أن تحكمها"[٢]

فالقصيدة المدحيةُ إذن في غالب أحوالها غاية في حد ذاتها حتى وإن كانت سبباً لكثير من النتائج غير أن تلك النتائج ربما لا ترقى أن تكون غايات في حد ذاتها، وإنما هي ربما تكون توابع حتمية أو متوقعة على الأقل وهذا

ما أدى إلى الاشتباه في أمرها، وأظن ذلك ليس ببعيد عما يراه "جان بول سارتر" في كتابه "ما الأدب "حيث يقول : " إذا كنت أتهم الفنان بأنه كتب ما كتب عن أهوائه ومن أجل أهوائه فلا تلبث ثقتي أن تتلاشى إذ لا جدوى حينئذٍ من دعم

---

[٢] اللغة الشاعرة : ص٩٨ ومابعدها عباس محمود العقاد ، مكتبة غريب ، القاهرة ، سنة ١٩٨٨م .

النظام السَّببي بالنظام الغائي ، ويصبح النظام الغائي بدوره مرتكزاً على السببية النفسية "[١]

من هنا لا ينبغي النظر إلى قصيدة المديح ـ منذ الوهلة الأولى ـ على أنها مجرد صفات تُخلع على الممدوح طالما رددها الشعراء استجداءً لعطائه أو رغبة في حلولهم منزلة أسمى لديه، وإنما يمكننا النظر إليها باعتبار أن" مبناها هو بحث الشاعر عن هموم الإنسان الخالدة أو التعبير غير المباشر عن أدق أنواع الصراع في داخل المجتمع الذي يعيش فيه" [٢]

فالقيمة ترتبط أساسا بالفرد من خلال رابطين أساسيين : أولهما : أنها وليدة البيئة ، وثانيهما : أنها تعد مُعبِّراً حقيقياً عن العلاقات الاجتماعية . وبعبارة أخرى فإن القيمة تربط الفرد ببيئته من جهة وتربطه بنسقه الاجتماعي الخاص من جهة أخرى.

ومن هنا ننطلق في تناول معاني المديح في بلاط هارون الرشيد محاولين الغوص داخل هذه المعاني واستكناه بواطنها وما تشي به من ظروف العصر وطبيعة الشخصية العربية فيه ، لكننا قبل أن نشرع في اقتفاء آثار معاني المديح في القصيدة المدحية في بلاط هارون الرشيد ، ينبغي أولاً أن نشيم ما وضعه

---

(١) ما الأدب : ص١٠٢ جان بول سارتر ، ترجمة محمد غنيمي هلال ،مكتبة الأسرة ، مهرجان القراء ة للجميع سنة ٢٠٠٠م .

(٢) اللغة بين البلاغة والأسلوبية : ص٢٩١ ، د / مصطفى ناصف ، كتاب النادي الأدبي الثقافي بجدة ، طبعت بمطابع دار البلاد ، جدة ، ١٩٨٩ م .

القدماء من معانٍ و قيمٍ للمديح برقاً نسير على هديه لينير لنا بومضات كاشفة تعيننا على سبر تلك المعاني واكتشاف ما طرأ عليها من تطور ، وتمييز ما رسب منها في قرار الشخصية العربية ليُكَّون أساساً قيميَّاً يظهر كأوضح ما يكون في قصيدة المديح .

فقد عدد "ابن طباطبا العلوي" الفضائل الإنسانية التي وجد العرب تمتدح بها في الشعر ، فقال: " وأما ما وجدته في أخلاقها وتمدَّحت به ومدحت به سواها، وذمَّت من كان على ضد حالها فيه فخلال مشهورة كثيرة : منها في الخَلق الجمال والبسطة ، ومنها في الخُلق السخاء ، والشجاعة والحلم ، والحزم والعزم، والوفاء ،والعفاف، والبر، والعقل ، والأمانة، والقناعة ، والغيرة والصدق، والصبر ، والورع ، والشكر ، والمداراة ، والعفو، والعدل ، والإحسان وصلة الرحم ، وكتم السِّر ، والمواتاة ، وأصالة الرأي ، والأنفة والدهاء ، وعلو الهمة ، والتواضع ، والبيان ، والبِشر ، و الجَلَد ، والتجارب ، والنقض والإبرام"[١]

كما أضاف لهذه الخلال تفريعات من قِرى الأضياف ، وكظم الغيظ ورعاية العهد ، وقمع الشهوات ، والتنزه عن الكذب ، وبلوغ الغايات وما شابه ذلك من الصفات [٢]

---

(١) عيار الشعر : ص١٢ ، محمد بن احمد ين طباطبا العلوى ، تحقيق د/طه الحاجرى، د/ محمد زغلول سلام القاهرة ،١٩٥٦م.

(٢) أنظر نفس المرجع : ص١٢

وتبعه " قدامة بن جعفر" فحصر صفات المدح في الفضائل الخُلقية دون الخِلقية ورأى أن المدح ينبغي أن يعوِّل على الفضائل النفسية فحسب ، لأن الناس ينبغي أن تتفاضل حيث هم ناس لا من حيث ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوان ، فمن رأيه أن جماع هذه الفضائل ينحصر في أربع هي: العقل والشجاعة والعدل والعفة.(٣)

كما تحدث عن أقسام وتفريعات هذه الفضائل وأنواع تركيبها معا فمن أقسام العقل مثلاً ثقابة المعرفة والبيان والسياسة والعلم والحلم وغير ذلك مما جرى هذا المجرى.(٤)

وإذا رُكِّبَ العقل مع الشجاعة نتج عن ذلك صفات مثل الصبر على الملمات والنوازل والوفاء ، والإيعاد ، وهكذا على هذا المنوال (١)

ولعل من الأهمية بمكان – ونحن بصدد دراسة معاني المديح في القصيدة المدحية ببلاط هارون الرشيد – أن نأخذ بعين الاعتبار ما أثير حول شخصية هارون الرشيد من جدل ، ناظرين بأعين الشعراء – على اختلاف رؤاهم وأساليبهم وطرائقهم في التعبير – إلى مجتمع اشتهر بثرائه الفكري ورخائه المادي وقوة دوله الإسلام فيه ، غير غافلين عن التيارات الفكرية المختلفة التي أفرزها

---

(٣) انظر نقد الشعر: ص٦٥ وما بعدها ، أبو الفرج قدامة بن جعفر ، تحقيق كمال مصطفى ، الطبعة الثالثة ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، سنة ١٩٧٩ م .

(٤)أنظر نفس المرجع :ص٦٧

(١) انظر نقد الشعر: ص٦٨ ، أبو الفرج قدامة بن جعفر ، تحقيق كمال مصطفى ، الطبعة الثالثة ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، سنة ١٩٧٩ م .

العصر بما فيها من تناقص قد يُصدِّر لنا حالة الصراع بين الزهد على سبيل المثال وبين المجون والخلاعة ، غير أنه قد لا يكون الأمر كما في ظاهره صراعاً ، فربما يكشف لنا عن مساحة من الحرية والثراء الفكري ، والرُّقي في التعامل مع ما يطرحه الآخر من أفكار قد تخالف السِّياق المجتمعي وما ألفه الناس من قيم .

فيأتي أبو نواس الذي اشتهر بنزقه، وولعه الشديد بالخمر، ليعتمد في مدحه هارون على قيم دينية أصيلة مثيراً التساؤل حول تأثير المناخ الثقافي في المجتمع على أسلوب الشاعر ومنهجه ، يقول أبو نواس :

هارون ألَّفَنَا ائتِلاف مودةٍ
ماتت لها الأحقادُ والأضغانُ [1]

إشارة إلى تناصٍ خفيّ مع قوله تعالى: { وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [2]

إن أبا نواس يتحدث عن الألفة باعتبارها قيمة كبيرة يخص بها ممدوحه فضلاً عن الكرم والشجاعة والنبل ، فطبيعة العربي في هذا العصر قائمة على العصبية والنزاع بما أفرزه الصراع الأموي العباسي من مذاهب وأفكار متنازعة جعلت الألفة أمراً من الصعب حدوثه فلا يستطيعه إلا هارون الذي نجح بما أولاه الله من فضل في أن يؤلف بين القلوب ويجمعها حوله ، وأن يُخمد نيران الفتن

(١) ديوان أبى نواس :ص٨٤٦ ، حققه وشرحه وفهرسه سليم خليل قهوجي، دار الجيل .
(٢)القرآن الكريم : سورة الأنفال الآية (٦٣)

والنزاعات فقد لينت له القلوب بالألفة والمودة ،وهى التي من طبيعتها النفور والخلاف.

ويمكننا أن نرى هذا المعنى من معاني المديح في ضوء ما طرأ على القصيدة المدحية من تطور ، يتماشى مع تغيرات العصر .

ولعنا نلحظ تعبيراً طريفاً في قوله (ألفنا ائتلاف مودة) ، إذ أضاف إلى المصدر لفظة (مودة) ليضيف إلى تجمع القلوب حول هارون صفة(الإخلاص) وينزهه عن أي هوىً أو قصد ، وهذا يرجعه إلى هارون وحده الذي له صفات القائد العظيم بما يتمتع به من شخصية مميزة ،وصفات خاصة .

ولا يقف الأمر عند هذا الحد لكنه يكمل البيت مؤكداً على أن هذه المودة قد محقت كل الأحقاد والضغائن التي لم تكن لتعيش في هذا الجو من الحب والألفة: "ماتت لها الأحقاد والأضغان ".

وإذا تأملنا" ماتت لها " سنجد طرافة في التعبير إذ إن الأحقاد لم تمت بفعل طغيان المحبة أو بسببها وإنما ماتت لأجلها وكأن المحبة قد تسربت إلى الأحقاد والأضغان فجعلتها تموت راضية قانعة بأن هذا العصر (عصر هارون الرشيد) هو عصر المحبة ويقول أبو نواس أيضا :

حجٌ وغزوٌ ماتَ بينهما الكرى

بالیعملات شعارها الوخدانُ [1]

فأبو نواس وإن كان قد اشتهر بالفساد إلا أنه لا ينكر قيم المجتمع الدينية وسمّوها وشيوعها في المجتمع إشارة إلى أن السائد في عهد هارون هو القيم الروحية وأن ما أفرزه المجتمع من فساد وانحلال قد يظهر في شعر أبى نواس وغيره لا يعبر عن حقيقة هذا المجتمع الغنى بقيمه ، و أخلاقه بحيث لا يملك الفاسد أن يخرج عن هذا النسق القيميِّ ، وربما يشير هذا من جهة أخرى إلى أن أبا نواس كان في داخله شخصية مؤمنة على عكس ما ظهر منها، وأن شخص هارون فيه من الورع والتقوى ما يتسرَّب إلى نفوس الشعراء فيعودون من خلال مدحهم له إلى قيم ربما قل ظهورها في شعرهم .

ولكن أبا نواس لم يتخلص في مدحه هارون الرشيد من كل ما شاع في شعره من وصف للخمر والندماء وإنما برع في تحويله من معناه الشائع ليضيف له معنىً وقوراً مستطرفاً فيقول .

ألفت منادمة الدماء سيوفه

فلقلما تحتازها الأجفان [1]

فكما يألف الندماء شرب الخمر ألفت سيوف هارون الارتواء من دم الأعداء، وكما يألف الندماء السهر مع الخمر بحيث لا يغمض لهم جفن حتى لا

---

(١) ديوان أبي نواس ص٨٤٦.

(١) ديوان أبي نواس : ص٨٤٧

تفوتهم اللذة ،كذلك سيوف هارون قلما ترتاح في أغمادها(الأجفان) فهي مشهرة في حالة يقظة دائمة حتى لا تفوتها لذة الارتواء من دماء الأعداء (الخمر) .

وما كان هذا البيت إلا لفطنة أبى نواس بميول الخليفة ومزجها بميوله الشخصية بما لا يخلُّ بأي من المنحيين وإنما يظهرهما في أبهى صورة لهما بل ويخلق منهما صورة جديدة تجمع بين صورة الخمر عند أبى نواس وصورة السيوف لدى الممدوح .

فنرى أن أبا نواس حين مزج بين حاله وحال الممدوح كان موفقاً في ذلك إلى حد بعيد ، فلقد أضاف صورة مبتكرة بهذا المزج فضلاً عمَّا أسدله على مديحه من صدق نتبيَّنه في عفويَّة إظهاره لميوله الشخصية التي يتحرى كثير من الشعراء إخفاءها إرضاءً للممدوح و تحاشياً لإغضابه .

كما ألف أبو نواس ذكر الخمر حتى وهو يمدح هارون بالتقوى حيث يقول:

وكأس كمصباح السماء شربتها
على قبلة أو موعـــد بلقاء
أتت دونها الأيــام حتى كأنها
تساقـط نـور من فتوق سماء
ترى ضوءها من ظاهر الكأس ساطعاً
عليك ولـو غطيتها بغطـــاء
تبارك من ساس الأمور بعلمه

وفضل هارونا على الخلفاء

نعيش بخير ما انطوينا على التقى

وما ساس دنيانا أبو الأمناء

إمام يخاف الله حتى كأنه

يؤمَل رؤياه صباح مساء[1]

إن هذه الأبيات تحتوى على تناقض ظاهر في السياق فكيف يصف أبو نواس الخمر والكأس بهذا الإمعان مستهلاً حديثه عن تقوى هارون وورعه وخشيته لله ؟! وقد يثار تساؤل حول أنه كيف سمح هارون التقى الورع لأبى نواس أن يصف الخمر والكأس أمامه ؟! غير أن الإجابة عن هذا السؤال تكمن فيما أشرنا إليه سابقا من أن هارون كان يُعطي مساحة من الحرية لمن يطرح أفكاره في الشعر حتى وان كانت تخالف ما ارتضاه المجتمع من قيم وأفكار ناظراً إلى القيمة الفنية من وراء الوصف متغاضيا عمّا يبدو عليه المعنى .

أما عن أبى نواس نفسه ، فإنه بدا كمن يستعرض عضلاته الفنية في وصف الخمر منتقلاً منها، إلى هدفه الأساسي وهو إعلاءٍ قيمة التقوى والتأكيد على أنها سر القوة لهارون ودولته :

نعيش بخير ما انطوينا على التقى

وما ساس دنيانا أبو الأمناء

---

(١) ديوان أبي نواس :ص٤٥ وما بعدها